

هجرة العلماء في المغرب الأوسط في العصر الوسيط

بكر بن حماد، ابن معطي الزواوي، المقري

ط. بسطي عفاف

إشراف: د. آمنة بن منصور

مخبر: الخطاب التواصلي الجزائري الحديث

المركز الجامعي بلحاج بوشعيب عين تموشنت

sa770@hotmailfr

ملخص:

إن المتتبع لمسار العلماء في المغرب الأوسط - أو الجزائر - في العصر الوسيط، سيلاحظ أن هذا العالم الجزائري قد عاش فترة معينة في بلده الأصلي ليهاجر بعدها إلى بلاد أخرى متجها نحو المشرق أو المغرب الأقصى، وهذا لدوافع سنحاول الكشف عنها هل بسبب الحج؟ أو طلب الرزق أو العلم؟ أو هو هروب من الإضطهاد؟ ومن هو أول عالم قام بفعل الهجرة؟

الكلمات المفتاحية: الهجرة- الجزائر- المشرق- المغرب الأوسط- العصر الوسيط.

Abstract:

The follower of the path of scientists in Morocco-Algeria-or in the medieval era, will notice that the Algerian world has lived a certain period in his native country to emigrate to another country heading towards the Orient or Morocco, and that we will try to detect motives are due to Hajj? or livelihoods or science? or is it an escape from persecution? and is the first scientist did immigrate?

Keywords: immigration-Algeria-Orient-Morocco-medieval era.

تعد الهجرة أو التنقل من بلد لآخر أو كما أسماها البعض الرحلة، سبيلا انتهجه العلماء أكثر من العامة من أجل طلب العلم، مشرقا أو مغربا-أي المشرق العربي أو المغرب الأقصى -، وقد حاولنا اختيار ثلاث شخصيات أو علماء من العصر الوسيط في المغرب الأوسط، من فترات مختلفة متباعدة، وهذا لمعرفة أسباب هجرة كل عالم، وهذا طبعا ما سنتحدث عليه بعد الإجابة عن التساؤلات التالية: ما هي أسباب هجرة علماء المغرب الأوسط؟ وأين كانت وجهتهم؟ ولماذا المشرق أو المغرب؟ ومن أول من هاجر من الجزائر؟ أهو بكر ولماذا؟ وما الذي دفع الزواوي للهجرة من بلده؟ وما النتائج المتحصل عليها من هجرة المقري؟

متن البحث:

إن الكلام عن ظاهرة الهجرة في الجزائر يدفعنا إلى الحديث الرحلة من بدايتها الأولى وكذا أسبابها:

الرحلة إلى المشرق في الجزائر: شهدت الجزائر حركة للتنقل وارتحال علمائها في الفترة الأولى من الحكم الإسلامي، وكانت الهجرة من الجزائر نحو المشرق العربي، ويرجع هذا لسبب عدم تمكن الجزائريين بعد من الثقافة العربية الإسلامية التي كانت بالنسبة لديهم جديدة حديثة العهد، كما إن المشرق العربي * كان لا يزال بالنسبة لديهم غير واضح المعالم والطرق.²¹

وتعود نشأة الهجرة في طلب العلم إلى "بداية انتشار الإسلام، فقد كان من المعتقد أن اكتمال العلم لا يتم إلا بالرحلة إليه، وقد أصبحت الرحلة لازمة من لوازم التحصيل العلمي، وملمحا متميزا للتربية الإسلامية منذ عصورها الأولى"³. ويرى ابن خلدون "أن الرحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة تزيد في اكتمال التعليم في ذهن طالب العلم، والرحلة في طلب العلم عمل عرفه الغرب الإسلامي منذ عهوده الأولى، فمعظم علمائه كانت لهم رحلات علمية واسعة إلى المشرق لأداء فريضة الحج ولقاء المشايخ، وجمع المصنفات المتداولة في مجالس العلم بالغرب والشرق الإسلاميين، وقد وردت على يد علمائه الرحلة، غير أن تسجيل مواد الرحلة قد ظل عملا محدودا خلال العصور الأولى حتى القرن السابع الهجري، لا يعرف إلا بضع رحلات"⁴، وصلت إلينا.

ولقد شد طلاب المغرب العربي بالعموم وطلاب المغرب الأوسط بالخصوص الرحال إلى الحواضر العلمية إلى الغرب والمشرق الإسلاميين، وأشهر تلك المناطق القيروان، ومراكش، واشبيلية، والإسكندرية، وبغداد، والبصرة، والمدينة، ودمشق، وهذا ما نلاحظه أيضا في الشخصيات التي سنتحدث عنها، كما أن هذه الظاهرة توسعت

وانتشرت مع القرنين السادس والسابع هجريين، بهدف توسيع معارفهم العلمية بالالتقاء بالعلماء والمحدثين شخصيا.

ومن هنا كان العالم يرحل لرواية الحديث، أو للقاء عالم شخصيا، واعتماد التلقين المباشر لتلك المادة المراد تعلمها، أو التعرف على مناهج جديدة، أو الحصول على كتب يرغب في الإطلاع عليها لم يطلع عليها من قبل.⁵

أما في العهد العثماني فبالرغم من "الظروف الطبيعية في بعض الأحيان قد دفعت الجزائريين إلى الهجرة، فالعثمانيون من جهتهم لم ييخلوا بتشجيعاتهم للجزائريين وتحريضهم للهجرة إلى ولاياتهم في الشام، وقد استحدث لهذا الغرض السلطان عبد الحميد الثاني مكتبا خاصا أو كل له مهمة تهجير أكبر عدد ممكن من المغاربة إلى الولايات العثمانية، كما أوفد إلى الجزائر الدعاة والمبعوثين من اسنطبول لحمل الجزائريين على الهجرة إلى الولايات العثمانية⁶، غير أن هذا الأمر أزعج الفرنسيين فيما بعد، وعمدوا إلى وضع حدود وأغلقوها غير أن ذلك لم الجزائريين من الهجرة إلى المشرق المغرب، ولا حتى تعلمهم في جامعاتهم مما جعلهم يتأثرون بأفكارهم التي أخرجت دعاة إسلاميين يدعوون إلى النهضة والتخلص من الاستعمار⁷

كما "شكل المهاجرون الجزائريون في سوريا ولبنان، وفلسطين، تجمعات معادية للسياسة الاستعمارية الفرنسية ونددوا بها كالاما وكتابة، ومن أجل هذا الغرض أسسوا جريدة خاصة بهم عرفت باسم المهاجر، التي كانت تصدر بدمشق مرة كل أسبوع، منددة بالسياسة الاستعمارية التي تنتهجها فرنسا في الجزائر، ومدافعة عن حقوق المهاجرين المغاربة في المشرق العربي،"⁸ فوجهة العلماء ودوافع الهجرة تغيرت عما كانت فيه، فبعدها كانوا يرحلون إلى المشرق العربي لأداء فريضة الحج، أو لطلب العلم، أو للتجارة، وتحولت لتصبح من أجل البحث عن أساليب للدفاع عن الوطن.⁹

ومن أشهر العلماء المهاجرين اخترنا ثلاث نماذج منهم :

أولا: بكر بن حماد: 200 هـ - 295 هـ / 908 م - 815 م

أنجز الجزائريون رحلات كثيرة نحو المشرق العربي، كما تحدثنا آنفا، وهذا تبعا لأغراضهم، واختلفت فمنها ما كان للقيام بفريضة الحج، ومنها ما كان لطلب العلم، أو السياحة للكشف عن مناطق الشرق¹⁰.

وكانت الفئة التي تهاجر طبعاً في الأغلب "من الذين لهم المال أو لهم العلم أو لهم إمكانات الاستقبال، وبذلك هاجر عدد من المثقفين والبرجوازيين الجزائريين إلى المشرق وهاجر بعضهم أيضاً إلى المغرب وتونس"¹¹، وهذا لاعتبارات من بينها: "أن الهجرة في طلب العلم مظهراً مشرفاً ونبيلاً في الثقافة العربية الإسلامية حيث ظل الناس يتبادلون الرحلة من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق خصوصاً، للكروع من ينابيع المعرفة، والسماع من أكابر العلماء والمفكرين ومجالسهم، ومناقشاتهم: فيما كان يعرض لهم من مسائل العلم، وقضايا المعرفة، ويبدو أن تقاليد التعليم على تلك العهود كانت تؤثر السماع من أفواه العلماء على قراءة كتبهم؛ فكان المتعلمون، أو قل: طلاب العلم على الأصح، يلتمسون مشافهة الرجال، والاتصال بهم شخصياً، وكانوا يفتخرون بذلك ويتباهون"¹²، بأسماء من التقوا بهم.

ويعتبر عبد الملك مرتاض أن أهم رحلة أو هجرة، احتفظ بها التاريخ، هي تلك التي قام بها المثقف الجزائري بكر بن حماد الزناتي في سن السابعة عشر ربيعاً من عمره، ويشير إلى عدم معرفة خلفيات هذه الرحلة ودوافعها الحقيقية؛ إن كانت بسبب الاضطهاد المذهبي؟ أم بسبب العلم؟ ويرجح السبب الأخير لما تحمله شخصية بكر بن حماد من همة وطموح من أجل الاستزادة في العلم؛ بعد علمه بأن ما تلقاه في تيهرت من علم لا يمكن أن يروي ظمأه ولا يشبع جوعه، فذهب إلى مدينة بغداد عن طريق القيروان، حيث استطاع أن يفرض فيها نفسه في النوادي الأدبية هناك و هجى الشاعر دعبل الخزاعي وحرص بكر الخليفة العباسي المعتصم عليه؛ الذي جعل أبو تمام الطاشي يعاتبه في ذلك.

كما " أتيح للشاعر بكر بن حماد، الفتى الجزائري المعتد بنفسه، أن يجالس أدباء بغداد ومفكراتها، و فقهاءها ومحدثيها، ويبدو أن بكر بن حماد كان أول شخصية فكرية جزائرية صميمة، ميلادا ومنشأ ونسباً، وداراً: ترقى إلى تبوء شهرة عربية في المشرق والمغرب والأندلس حيث تصدر للتعليم بالقيروان عام أربعة وسبعين ومائتين للهجرة، وقد ارتحل إلى الشيخ خلق كثير من أهل الأندلس وأخذوا عنه"¹³، فيا ترى من هو حماد؟

بكر بن حماد: هو "أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل وقيل بن سهر بن إسماعيل الزناتي أصلاً التاهرتي نشأة وداراً ووفاة"¹⁴. أما عادل نويهض فيورد في معجمه "أن بكر بن حماد بن سهل (وقيل: صالح، وقيل: سهر، وقيل سمك) بن أبي إسماعيل الزناتي التاهرتي، أبو عبد الرحمن: من شعراء الطبقة الأولى في عصره"¹⁵ آنذاك.

ولد بكر بن حماد" بمدينة تاهرت حوالي عام 200هـ و بها تلقى دروسه الأولى على مشاهير علمائها وجملة فقهاؤها وكبار محدثيها وذلك إلى إن بلغ السابعة عشر من عمره وهي السنة التي غادر فيها تاهرت موليا وجهه نحو إفريقيا والمشرق"¹⁶، بغرض الاستزادة في العلم، والتفقه فيه.

مكانته العلمية ومذهبه:

أغلب مصنفات السير والتراجم تجمع على أن بكر بن حماد كان من الزهاد في الدنيا، عالما دينيا راوية للحديث "حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم"، مما جعله مأمونا ثقة حيث كان يروي عنه أهل السنة كما يروي عنه الخوارج¹⁷.

فهو إذن" عالم بالحديث ورجاله، فقيه، ولد بتيهرت، ورحل إلى البصرة في العراق سنة 217هـ، وهو حدث السن، فأخذ عن مسدد الأسدي وغيره والتقى بدعبل الخزاعي، والعباس بن الفرج الرياشي، وعلي بن الجهم، وسهل بن محمد السجستاني، وحبيب بن أوس الطائي، وغيرهم، واتصل بالخليفة المعتصم بالله ومدحه، وعاد إفريقية قبل سنة 239هـ فأخذ عن عون بن يوسف الخزاعي و سحنون ابن سعد بالقيروان، ثم تصدر لإملاء الأدب والعلم بجامعها الكبير، فارتحل إليه الكثير من أهل إفريقية والأندلس للأخذ عنه، وفي السنة 295هـ عاد إلى تاهرت فتوفي بعد سنة من عودته 296هـ في قلعة ابن حمة شمال تاهرت، وهي نفس السنة التي سقطت فيها الدولة الرستمية بيد العبيديين، له ديوان شعر كبير"¹⁸، تحت عنوان الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي وهو مؤلف قام بتقديمه وجمعه وشرحه: محمد بن رمضان شاوش أستاذ بثانوية الحكيم ابن زرجب بتلمسان، وطبعت الطبعة الأولى بالمطبعة العلوية بمستغانم سنة 1385هـ 1966م¹⁹.

استأنف هجرته من القيروان للوصول للشرق عام 617هـ 832م، توقف عندها-القيروان- و قرأ الحديث وبقية العلوم التي كانت تلقى حينذاك بمساجدها على أكبر علمائها منهم: الشيخ عون بن يوسف الخزاعي، والإمام سحنون بن سعيد التنوخي، وأقام ببغداد أيضا؛ واتصل بالخليفة المعتصم العباسي ومدحه ونال جوائز آنذاك، كما اتصل أيضا بدعبل الخزاعي الشاعر وان هذا الأخير توفي عام 220هـ 835م، وقرأ كتبه هناك كلها على عون بن يوسف الخزاعي .

كما نجد بكر بن حماد يصرح في أحد النصوص أنه أنشد مقطوعة من شعره بالعراق ومصر و تاهرت والقيروان وهذا ما يشير إلى توقفه بمصر أيضا وهجرته إليها.²⁰

ويشير شاوش في كتابه عن بكر بن حماد إن كان الشاعر أقام فريضة الحج أثناء أم كان لطلب العلم فقط سبب للهجرة ومن تلك التساؤلات التي طرحها نذكر؛ "ثم مما يخطر بالبال سؤال آخر، هل أدى شاعرنا فريضة الحج وزار البقاع المقدسة أم لا؟ فهذا كذلك سؤال لا نستطيع الإجابة عليه مع أننا نعلم أن ذلك هو الضالة التي كان ولازال ينشدها كل مغربي يتجه إلى الشرق وخصوصا في القرون الوسطى حيث كان المغاربة يقصدون البلاد الشرقية لا لأداء فريضة الحج فحسب ولكن لاكتراع العلوم من ينابيعها الأصلية أيضا لكن الذي نعرفه عنه بالتفصيل هو أنه اتجه إلى العراق ودخل البصرة والكوفة ثم استقر بدار الخلافة ببغداد وأنه أخذ الحديث بها عن الشيخ عمر بن مرزوق البصري ومسدد بن مهران الأسدي وأبي الحسن البصري وبشر بن حاجر وأبي حاتم السجستاني وأنه لقي من علمائها الرياشي وابن الأعرابي، كما اجتمع بأدبائها وشعرائها"²¹.

بكر بن حماد من الشخصيات التي نالت حظا وفيرا من الدراسات، وذكرت في أغلب كتب التراجم والموسوعات، من أهمها نفع الطيب للمقري، وترتيب المدارك للقاضي عياض، والبيان المغرب لابن عذاري، وتاريخ الجزائر في القديم وذاكر، وتاريخ الجزائر في القديم والحديث للشيخ مبارك الميلي، وتاريخ الجزائر العام للشيخ عبد الرحمن الجيلالي، والأدب الجزائري القديم: دراسة في الجذور لعبد الملك مرتاض، وأهم دراسة تناولته لك الكتاب الذي جمع شعره وخصصه فقط لشخصية بكر بن حماد وشعره تحت عنوان الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد لابن رمضان شاوش وغيرها.

وربما يرجع ذلك لقرينه من أعلام الشعراء مثل أبي تمام، و دعبل الخزاعي، وعلي بن الجهم، و حتى شخصيات مثلما فعل ببغداد - للمعتصم.²²

عن عودته إلى المغرب وإقامته بالقيروان للمرة الثانية يتحدث محمد رمضان شاوش عن ذلك بداية بطرح الأسئلة التالية: "ما هي المدة التي قضاها ابن حماد بالمشرق عموما وببغداد خصوصا ومتى رجع إلى المغرب؟ فالجواب على هذا السؤال ليس بهين لكن الظاهر أن إقامته بالمشرق وخصوصا العراق كانت طويلة جدا لأننا لا نجد له ذكرا بالمغرب قبل عام 274هـ 887 م وهي السنة التي رحل فيها قاسم البياني من الأندلس إلى المشرق و لقي بالقيروان شاعرنا التاهرتي وسمع منه حديث مسدد بن مهران الأسدي "²³.

أما عن عودته إلى تاهرت ووفاته بها تساءل محمد بن رمضان شاوش مرة أخرى حيث طرح التساؤل التالي: "هل إقامة ابن حماد بالقيروان بعد عودته من المشرق كانت دوما واستمرارا أم كان يغادرها المرة ليتردد على مسقط رأسه تاهرت أو غيرها من مدن المغرب، الظاهر أنه كان يقيم بالقيروان حيناً وبتاهرت حيناً آخر حسبما

كان يقتضيه صفاء الجو السياسي وتعكره في كل من العاصمتين ويؤيد هذه النظرية مشاركته في الفتنة التي وقعت بتاهرت عام 282هـ/895م ضد أبي حاتم الرستمي وأدت إلى إخراج هذا الأخير من عاصمة ملكه واعتذار الشاعر إليه بعد رجوعه إليها²⁴.

ويذكر أيضا شاوش أن عودته من القيروان إلى مسقط رأسه تاهرت "كانت بسبب وشاية وقعت من منافسيه لدى الأمير إبراهيم ابن أحمد بن الأغلب، فخرج فارا من القيروان مصحوبا بابنه عبد الرحمن ولما بلغا المكان المعروف بقلعة ابن حمّة على مسافة قريبة من تاهرت في الناحية الشمالية منها تعرض لهما لصوص في الطريق فجرحوا الأب وقتلوا الابن وقد وقعت هذه الحادثة عام 295هـ/908م ثم إن ابن حماد دب ديبيا إلى أن وصل إلى تاهرت و بها قبضت أنفاسه في شهر شوال من عام 296هـ/909م وصلى عليه يوم وفاته الفقيه موسى بن الفارسي"²⁵.

والحديث عن رحلة بكر بن حماد لدليل على انتشار العربية بين المثقفين في الجزائر ولا أدل على ذلك تكوينه الأول الذي بمدينة تيهرت في بيئة ثقافية تتخاصب فيها ثقافات إسلامية متعارضة، وواضح أيضا أن لغة التعليم والتأليف والإبداع والتفكير كانت لغة الضاد²⁶.

ونستطيع القول؛ "أقدم من أنجز رحلة إلى المشرق كان بكر بن حماد بن سهل بن إسماعيل الزناتي التاهرتي، فهو أول شخصية فكرية جزائرية، ومن شعراء الجزائر المجيدين، عاش في كنف الدولة الرستمية التي كانت عاصمتها تيهرت، وتلقى²⁷ تعليمه الأول ببلدته، تيهرت، وارتحل بعد ذلك إلى تونس فدرس بالقيروان ثم واصل رحلته المشرقية، متوجها نحو بغداد عاصمة الخلافة العباسية آنذاك، فالتقى فيها بأدبائها وفقهائها ومحدثيها، وقد حظي بشرف الإتصال بخليفة ذلك العهد وهو المعتصم بالله، ومدحه، ثم رجع بكر بن حماد إلى القيروان فأقام بها مدة يدرس ويقراً وفي سنة 289هـ رجع إلى تيهرت وبقي بها حتى وفاته²⁸.

كل هذه المعطيات تبرز لنا أهمية هذه الشخصية وكيف مثلت لهجرة العلماء نحو المشرق العربي في الجزائر.

2- الزواوي: 564هـ-627هـ/1169-1231م

من الشخصيات المغاربية التي عرفت في المشرق بسبب هجرتها له نجد: "هو يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي المغربي الحنفي زين الدين ويكنى بأبي الحسن، واشتهر باسم ابن معطي"²⁹، وهو "أحد أئمة عصره في النحو والأدب، شاعر مجيد، كثير الحفظ، أصله من زاوة، سكن دمشق واشتغل بالتدريس، ولقي ابن عساكر

فسمع منه، ثم رغبه الملك الكامل في الانتقال إلى القاهرة فسافر إليها ودرّس بها الأدب العربي في الجامع العتيق، وعكف على التأليف، ولم يزل على حاله إلى أن توفي بها³⁰.

ووجدنا كواتي يعرفه أيضا بقوله: "يحيى بن عبد المعطي الزواوي النحوي أحد أعلام عصره في اللغة العربية وآدابها؛ هو أبو الحسين زيد الدين أبو زكرياء يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي، ولد سنة 564هـ - 1168م بالجزائر في منطقة زاوة المنسوب إليها؛ درس الزواوي في بلده الجزائر العربية النحو، وتفقه بالمذهب المالكي على يد أبي موسى الجزولي (ت 607هـ-1210م) بعدها انتقل إلى المشرق"³¹، ويرجع سبب هجرته إلى مصر؛ هو إجابته في مجلس الملك الصالح³²، الذي اقترح عليه ورغبه إلى التوجه إلى مصر، فسافر إليها، وفي القاهرة تصدر تدريس الأدب العربي في جامع عمرو، فالتف حوله الطلاب للاستفادة من علمه الغزير³³.

تُرَد هجرة العلماء في الغالب لأمرين؛ إما طلبا للرزق وإيجاد لقمة العيش، أو طلبا للعلم، وهجرة ابن معط هنا تشير معطياتها لطلب الرزق، حيث لو كان طلبا للعلم، فهذا الأمر فقد توفر في بلده أي في الجزائر حيث أتقن فيها علوم عصره حتى وصل إلى رتبة عالية، فأصبح عالما مبدعا، وعندما وصل إلى دمشق جلس للتعليم حيث التف حوله الطلاب ينهلون من علمه، يدرسه الأدب والنحو وعلوم اللغة،³⁴ كما "استقبله سلطانها استقبال عالم لعالم، فقد كان الملك عيسى بن محمد الأيوبي سلطان الشام عالما من العلماء، محبا للعلم مكرما للعلماء، ثم توفي الملك المعظم عيسى الأيوبي سنة 624هـ، فتولى الملك الكامل الحكم، فاتصل به ابن معط"³⁵.

ومن أسباب هجرة العلماء هو الاهتمام بالعلم والأدب الذي "شاع وازدهر مما نتج عنه مدارس دفعت الطلاب ينتقلون من مدرسة إلى أخرى، مستفسرين عن مسائل كثيرة لمعرفة ما يقوله العلماء عنها، وانتشر علم النحو"³⁶.

وقد كان "فاضلا أديبا شاعرا وإماما مبرزا في العربية، أخذ النحو بالمغرب الأوسط على الجزولي، ونزل دمشق مدة ثم انتقل إلى مصر واستوطنها وتصدر فيها بأمر الملك الكامل لإقراء النحو والأدب بالجامع العتيق إلى أن توفي بها سنة 628هـ"³⁷.

وقيل أيضا أنه توفي "بمدينة القاهرة سنة (628هـ 1230م) بعد أن عمر حوالي 54 سنة، قضاه في العلم والتدريس والتأليف، ودفن بالقرب من ضريح الشافعي"³⁸.

لم يكن الزواوي مدرسا فقط بل مؤلفا أيضا في علمي اللغة والنحو، وقد خلف وراءه عدة مؤلفاته في ميدانه أهمها: "الدرة الألفية في علم العربية المعروفة، والتي قام بشرحها العديد من العلماء، أشهرها شرح الشريشي، وله

ذلك الفصول أو الفصول الخمسون، و شرحها القاضي شهاب الدين بن أحمد ابن الخوي الشافعي (ت693هـ/1293م)، وأحمد بن محمد الأندلسي (ت 689هـ/1290م)، وهذه الشروح اعتبرت مرجعا هاما لتدريس النحو لمن جاء بعده، وألف أيضا العقود كما ألف ابن معط الزواوي في اللغة نظم ألفاظ الجمهرة لابن دريد والمثلث وشرح لأبيات سيبويه، وله ديوان خطب وديوان شعر والبديع في صناعة الشعر، واعتنى بنظم كتاب الصحاح للجوهري توفي قبل الإنتهاء منه،³⁹ وله: "الفصول في النحو، وهوامش على بن السراج، في النحو، وشرح على الجمل للزجاجي، في النحو، ومنظومة في القراءات السبع، ونظم ألفاظ الجمهرة لابن دريد في اللغة، والمثلث في اللغة، وشرح لأبيات سيبويه نظما"⁴⁰، و "ديوان خطب، ديوان شعر، شرح أبيات سيبويه وهي نظم، شرح المقدمة الجزلية، شرح الجمل في النحو للزجاجي، العقود والقوانين في النحو-قصيدة في العروض-قصيدة في القراءات السبع-المثلث في اللغة-نظم كتاب الجمهرة في اللغة لابن دريد، نظم كتاب الصحاح في اللغة للجوهري، ولم يكمله-البديع في صناعته الشعر"⁴¹.

فهي إذن مؤلفات جليلة لا تعد ولا تحصى .

"فيحي بن عبد المعطي الزواوي أحد مشاهير الجزائر في القرن السادس الهجري/الثاني عشر للميلاد، كان شخصية علمية بارزة اعتبر أحد أئمة اللغة والنحو في عصره، وأحسن شاهد على ذلك مصنفاته اللغوية والنحوية، التي وصل إلينا منها اليسير، وقد تكون موجودة في الخزائن التي لم تفهرس بعد، ولعل الأيام ستسمح بالثور عليها للاستفادة من تراث السلف الصالح"⁴².

هذا كان عن ابن المعطي وهجرته التي اكتشفنا فيما بعد بأنها بسبب البحث عن الرزق، والتدريس لا عن التعليم والاستزادة.

3- أحمد بن محمد المقرئ: 976هـ-1041هـ/1578م-1631م.

توالت هجرة العلماء إلى بلاد المشرق ففي القرن العاشر وجدنا " المقرئ " أو "أحمد بن محمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش، أبو العباس، المقرئ التلمساني: مؤرخ، أديب، حافظ، كان آية في علم الكلام والتفسير والحديث، ولد تلمسان، و بها نشأ"⁴³، وطلب العلم، حيث أخذه عن عمه سعيد المقرئ، ثم يبدأ هجرته بداية إلى فاس سنة 1009هـ/1600م، لطلب العلم وحضر مجلس علي بن عمران السلاسي في جامع القرويين، وناقشه في بعض مسائل الفقه، فاعترف له بالتفوق عليه وأقر له بقوة الحجّة والنباهة، إلى أن حل الفقيه إبراهيم بن محمد

الأيسي الذي اصطحبه معه إلى مراكش على جماعة من العلماء والأدباء جرت بينه وبينهم مطارحات ومداعبات ومساجلات ذكر بعضها في كتابه روضة الآس،⁴⁴ كانت بداية هجرته نحو المغرب الأقصى عام 1009هـ حيث غادر تلمسان إلى مدينة فاس بالمغرب⁴⁵، و"لقد تحاشى المقرئ أن يتحدث عن الظروف التي أرغمته على الرحيل، هي ظروف فيما يبدو كانت تتصل بالواقع السياسي⁴⁶، و"الفتن التي كانت بين دواليك بين سكان تلمسان والعثمانيين هي السبب في هجرة المقرئ نهائياً من تلمسان إلى فاس"⁴⁷

في مدينة فاس المغربية مضى المقرئ يطلب العلم على شيوخها منهم أبو عبد الله محمد بن قاسم القيسي، ليرجع بعدها في آخر عام 1010هـ إلى تلمسان، ثم يعود إلى فاس عام 1013هـ / 1604م ليستقر بها مفتياً وقاضياً وخطيباً⁴⁸.

ثم هاجرها" وفي أواخر رمضان 1027هـ سبتمبر 1618 خرج للحج، فدخل القاهرة سنة 1028هـ 1619م ومنها توجه إلى الديار المقدسة، وعاد إلى القاهرة سنة 1029هـ 1620م فأقام نحو شهرين، ثم دخل القدس الشريف والشام، و تكررت زيارته إلى الحجاز"⁴⁹.

فقد كانت هجرته نحو الحجاز "في أواخر شهر رمضان عام 1027هـ / 1617م، إثر اختلال المملكة بسبب صراع أولاد المنصور الذهبي على الحكم فترك منصبه ووطنه وأهله قاصدا حج بيت الله الحرام، وفي عام 1028هـ/1618م، من شهر رجب هاجر إلى مصر حيث أقام بها مدة قصيرة ليسافر بعدها عن طريق البحر إلى الحجاز لرؤية الحرمين الشريفين، حيث وصل إلى جدة فأكمل العمرة أوائل ذي القعدة من العام المذكور وأقام فيها منتظرا وقت الحج وبعد أن حج نوى الإقامة هناك، فحال من دون ذلك حائل ليقتصد بعدها طيبة الشريفة لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي عام 1029هـ/1619م عاد المقرئ إلى مصر، وكرر منها الذهاب إلى مكة وطيبة حتى تجاوز ذلك خمس مرات، وأملى فيها دروسا وأملى فيها الحديث النبوي ليعود إلى مصر حيث لازم خدمة العلم الشريف بالأزهر وكان عودته من الحجة الخامسة في شهر صفر من عام 1037هـ عاد المقرئ إلى البيت المقدس.⁵⁰ وفي منتصف شعبان من العام

نفسه عزم على الرحلة إلى مدينة دمشق حيث دخلها أواخر الشهر المذكور وأقام بها إلى أوائل شوال من السنة المذكورة حيث استقبله مضيفه أحمد بن شاهين، بأن أرسل إليه مفتاح المدرسة الحقيقية فأقام فيها واستوطنها مدة إقامته وأملى في جامعها صحيح البخاري، وقد جرى بين المقرئ وبين أدباء وعلماء دمشق آنذاك عدة مطارحات، ولم تطل إقامة المقرئ بدمشق، حيث إنه سرعان ما عاد إلى مصر في أوائل شوال من عام 1037هـ، وبينما هو

في طريقه إلى مصر عرج على مدينة غزة فأضافه فيها الشيخ الغصين قرابة الشهر، دخل المقرري مصر واستقر بها ثم عاد إلى دمشق للمرة الثانية وذلك في أواخر شعبان سنة 1040هـ/1630م، ثم عاد إلى مصر واستقر بها مدة يسيرة، ولما قصد العودة إلى دمشق للتوطن بها فاجأه الموت قبل نيل المرام، وكانت وفاته في جمادى الآخرة سنة 1040هـ/1631م ودفن بمقبرة المجاورين، وقد أرخ لوفاته الأديب الدمشقي إبراهيم الأكرمي⁵¹.

و"هكذا شاء القدر أن يصرفه عن العودة إلى وطنه الجزائر والمغرب الأقصى اللذين ظل يحلم بهما طيلة حياته بالمشرق، ولقد ترك المقرري تصانيف متعددة النواحي منها المؤلفات المطبوعة: أزهار الرياض في أخبار عياض: ألفه أثناء إقامته بفاس إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة: بدأ بتأليفها في أثناء زيارته للحجاز والشام⁵²، و" نفتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، طبع ثمانية أجزاء بما فيها الفهارس، سنة 1968 بتحقيق الدكتور إحسان عباس، وهي أكمل وأحسن طبعاته السابقة، وروضة الآس، العاطرة الأنفاس، في ذكر من لقيتهم من أعلام الحضرتين: مراکش و فاس، طبعة 1960 بتحقيق الأستاذ عبد الوهاب بن منصور، وأزهار الرياض في أخبار القاضي عياض طبع ثلاثة أجزاء منه سنة 1939 والنفحات العنبرية في وصف نعال خير البرية وفتح المتعال في وصف النعال طبع سنة 1334هـ، وخلاصة الفتح المتعال والنفحات العنبرية وهي عبارة عن أرجوزة تحتوي على 190 بيتاً"⁵³.

وفي الأخير نخلص :

* بأن هجرة العلماء الجزائريين كانت منذ القدم، وقد أعطينا ثلاث نماذج مختلفة في فترات متباعدة في العصر الوسيط، وكانت هذه الشخصيات على التوالي:

- بكر بن حماد الذي كان أول هاجر من الجزائر نحو بغداد .

- المعطي بن الزواوي نحو مصر.

- و المقرري الذي اتجه نحو المغرب ثم مصر، وكانت هجرة هؤلاء كما رأينا ذلك، وهذا طبعاً ابتغاء العلم وطلبه ونشره سواء في المجتمع المغربي أو المشريقي.

هذه كانت نقطة من بحر عن هجرة بعض العلماء وأخبارهم آملين أن تكون هناك دراسات أخرى حول هؤلاء العلماء المعلومين منهم والمغمورين، وإبراز مجهوداتهم العلمية والفكرية، التي نرى أنها طمست كما طمست شخصياتهم في المخطوطات والخزائن.

- ²* باعتبار ان العرب غزو الشمال الإفريقي، وفتحوه، وأسسوا به إمارة عربية للخلافة الشرقية، ينظر: مبارك بن محمد الميلي: تاريخ الجزائر في القدم والحديث، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دت، ص6.
- ² - ينظر: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية، سميرة أنساعد، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009، ص55
- ³ - المغرب الأوسط في عهد الموحدين دراسة تحليلية للأوضاع الثقافية والفكرية (534هـ/1139م إلى 633هـ/1235م): علي عشي، ماجستير في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإجتماعية والإنسانية والإسلامية تاريخ وعلم الآثار، جامعة الحاج لخضر باتنة 2011/2012م، ص133.
- ⁴ - المرجع السابق، ص133.
- ⁵ - ينظر: المرجع نفسه، ص136.
- ⁶ - الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام 1847-1918م: عمار هلال، دار هومة، الجزائر، 2007، ص18.
- ⁷ - ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 1830-1954م: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج5، ط1998، ص472.
- ⁸ - المرجع السابق، ص16.
- ⁹ - ينظر: المرجع نفسه، ص11، 12.
- ¹⁰ - ينظر: الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري: سميرة أنساعد، ص52.
- ¹¹ - الإشعاع المغربي في المشرق: دور الجالية الجزائرية في بلاد الشام: سهيل الخالدي، دار الأمة، الجزائر، 2016م، ص6.
- ¹² - الأدب الجزائري القديم: عبد الملك مرتاض، ص30.
- ¹³ - ينظر: المرجع السابق، ص38، 39.
- ¹⁴ - الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهري: محمد بن رمضان شاوش، المطبعة العلوية، مستغانم، الجزائر، ط1، 1966، ص43.
- ¹⁵ - معجم أعلام الجزائر، من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر: عادل نويض، مؤسسة نويض الثقافية، للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1980م.
- ¹⁶ - الدر الوقاد: محمد بن رمضان شاوش، ص43.
- ¹⁷ - ينظر: المرجع السابق، ص52-56.
- ¹⁸ - معجم أعلام الجزائر: عادل نويض، ص58، 59.
- ¹⁹ - ينظر: الدر الوقاد: محمد بن رمضان شاوش، ص53.
- ²⁰ - ينظر: الدر الوقاد: محمد بن رمضان شاوش، ص44-46.
- ²¹ - المرجع السابق، ص47.
- ²² - ينظر: الخطاب الأدبي القديم في الجزائر (دراسة بيبولوجيا): مختار حبار، منشورات مختبر الخطاب الأدبي في الجزائر، جامعة وهران، دار الأدب، وهران، 2007، ص81.
- ²³ - الدر الوقاد: محمد بن رمضان شاوش، ص48.
- ²⁴ - المرجع السابق، ص50.
- ²⁵ - المرجع نفسه، ص51، 52.
- ²⁶ - ينظر: الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور: عبد الملك مرتاض، دار هومة، الجزائر، 2003م، ص39.
- ²⁷ - الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري: سميرة أنساعد، ص54.
- ²⁸ - المرجع نفسه، ص55.
- ²⁹ - شرح ألفية ابن معطي: علي موسى الشمولي، ج1، مكتبة الخريجي، الرياض، ط1، 1985، ص15.
- ³⁰ - معجم أعلام الجزائر: عادل نويض: ص167.
- ³¹ - شخصيات جزائرية مواقف وآثار ونصوص: مسعود كواقي، دار طليطلة، بالمحمدية الجزائر 2011، ص72.

- 32 - يروى أنه قد حضر مجلس الملك الصالح مع جماعة من العلماء فسألهم الملك الكامل وكان علما : قال: زيد ذهب به. هل يجوز في زيد النصب؟ فقالوا لا. فقال ابن معط : يجوز النصب على أن يكون المرتفع بذهب المصدر الذي دل عليه ذهب وهو الذهاب. وعلى هذا فموضع الجار والجرور الذي هو به النصب فيجيء من باب : زيد مررت به. إذ يجوز في زيد النصب فكذلك هاهنا. فاستحسن الملك الكامل جوابه وطلب منه السفر معه إلى مصر فسافر. ينظر: علي موسى الشوملي: شرح ألفية ابن معطي، ص21، 20.
- 33 - شخصيات جزائرية مواقف وآثار ونصوص: مسعود كواقي، دار طليطلة، بالمحمدية الجزائر 2011 ص72.
- 34 - ينظر: شرح ألفية ابن معطي: علي موسى الشوملي، ص19.
- 35 - المرجع نفسه، ص20.
- 36 - المرجع نفسه، ص17.
- 37 - المرجع نفسه، ص177.
- 38 - شخصيات جزائرية مواقف وآثار ونصوص: مسعود كواقي، ص72.
- 39 - ينظر: المرجع نفسه، ص72، 74.
- 40 - شرح ألفية ابن معطي: علي موسى الشوملي، ص177.
- 41 - المرجع نفسه، ص31.
- 42 - شخصيات جزائرية مواقف وآثار ونصوص: مسعود كواقي، ص75.
- 43 - معجم أعلام الجزائر: عادل نويهض، ص310.
- 44 - ينظر: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب: أحمد بن محمد المقرئ التلمساني: تح احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، مج1، ص6 من المقدمة.
- 45 - ينظر: تعريف الخلف برجال السلف: أبو القاسم محمد الحفناوي، تقدم محمد رؤوف القاسمي الحسيني المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرعاية، الجزائر، ج1، 1906م.
- 46 - دراسة في مصادر الأدب،: الطاهر أحمد مكي، دار الفكر، ط8، القاهرة، 1999، ص372.
- 47 - تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، 1500-1830 أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998، ص213.
- 48 - ينظر الأساليب البلاغية في نفع الطيب للمقرئ: ياسين نبيل بوكرموش، درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها حسيبة بن بوعلي الشلف، 2007/2008م، ص3.
- 49 - معجم أعلام الجزائر: عادل نويهض، ص310.
- 50 - ينظر: الأساليب البلاغية في نفع الطيب للمقرئ: ياسين نبيل بوكرموش، ص4.
- 51 - ينظر: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب: أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، ص6، 10.
- 52 - المرجع نفسه، ص15، 7.
- 53 - معجم أعلام الجزائر: عادل نويهض، ص310.

قائمة المصادر والمراجع:

- الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور: عبد الملك مرتاض، دار هومة، الجزائر، 2003م.
- الأساليب البلاغية في نفع الطيب للمقرئ: ياسين نبيل بوكرموش، درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها حسيبة بن بوعلي الشلف، 2007/2008م.
- الإشعاع المغربي في المشرق: دور الجالية الجزائرية في بلاد الشام: سهيل الخالدي، دار الأمة، الجزائر، 2016م.
- تاريخ الجزائر الثقافي، 1830-1954م: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج5، ط1، 1998م.

- تاريخ الجزائر في القديم والحديث: مبارك بن محمد المليي ، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دت.
- تعريف الخلف برجال السلف: أبو القاسم محمد الحفناوي ، تقديم محمد رؤوف القاسمي المؤسسه الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، ج1، 1906م.
- الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي :محمد بن رمضان شاوش ، المطبعة العلوية، مستغانم، الجزائر، ط1، 1966.
- دراسة في مصادر الأدب:الطاهر أحمد مكّي، دار الفكر،ط8، دار الفكر، القاهرة،1999.
- الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري دراسة في النشأة والتطور والبنية: سميرة أنساعد، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر،2009 .
- شخصيات جزائرية مواقف وآثار ونصوص: مسعود كواقي، دار طليطلة، بالمحمدية الجزائر، 2011 .
- معجم أعلام الجزائر: من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر :عادل نويهض، مؤسسة نويهض للتأليف و الترجمة و النشر، بيروت، 1980م.
- المغرب الأوسط في عهد الموحدين دراسة تحليلية للأوضاع الثقافية و الفكرية(534هـ/1139م إلى 633هـ/1235م):علي عشي: ماجستير في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية والإسلامية تاريخ وعلم الآثار، جامعة الحاج لخضر باتنة ، 2012/2011م.
- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب أحمد بن محمد المقرّي التلمساني ،تح احسان عباس،مج1،دار صادر،بيروت،1968.
- هجرة الجزائرية نحو بلاد الشام1847-1918م: عمار هلال، دار هومة، الجزائر، 2007.